﴿ يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله ﴾

وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين

الآيات ٨ - ١١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

كونوا قوّامين لله : كونوا قوّامين بالحقّ لله عزّ وجلّ لا لأجل النّاس والسّمعة[1] .

شهداء بالقِسط : وكونوا شهداء بالعدل لا بالجور[2] .

ولا يجرمنّكم : لا يحملنّكم[3] .

شنآن قوم : بغض قومٍ[4] وعداوتهم[5] .

تأمر الآية الكريمة الذين آمنوا بأن يكونوا قوّامين بالحقّ لله تعالى وحده لا شريك له لا لأجل عباد الله تعالى ولا لأجل الرّياء والسّمعة . ونستطيع أن نتبيّن ملازمة القيام بالحقّ لله تعالى من صيغة المبالغة « قوّام » بالمقارنة بينها وبين الصّيغة الأخرى « قائم » كما تأمر الآية الكريمة المؤمنين بأن يكونوا شهداء ، هكذا في صيغة جمع المبالغة فعيل . ونستطيع كذلك أن نتبيّن الفرق بين صيغة المبالغة شهيد ولفظة شاهد . إنّ القيام بالحقّ والشّهادة بالقسط يجب أن يكونا ديدن الإنسان المؤمن وطبيعته .

وبعد أمر الآية الكريمة المؤمنين بالعدل تؤكّد هذا المعنى بنهيهم عن الجور والظّلم في الأحكام : ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على ألّا تعدلوا ﴾ والمعنى لا يحملنّكم بغض قومٍ لكم وعداوتهم على ألّا تعدلوا في الأحكام وعلى ألّا تنصفوا في الأقوال والأفعال . إنّ العدل مطلوبٌ منكم في حقّ أوليائكم وفي حقّ أعدائكم ، فلا تعطوا أولياءكم ما لا يستحقّون ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/٩١ وتفسير ابن كثير ٢/٣٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٠ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦/٩١ .

تبخسوا أعداءكم حقوقهم . إنّ العدل مطلوبٌ منكم فاعدلوا في الأحكام والأقوال والأفعال ، فإنّ العدل أقرب للتّقوى ، وأدنى أن يكون العادل ممتلئاً قلبه بخشية الله تعالى . والخشية مزيجٌ من الخوف والحبّ .

وبعد التّقريب للتّقوى وجعل العادل قريباً منها يأتي النّصّ صريحاً بالأمر بالتّقوى : ﴿ واتّقوا الله ﴾ .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها : ﴿ إنّ الله خبيرٌ بما تعملون ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه خبيرٌ بما يعمل الخلائق وبالبواعث على أعمالهم مجازٍ كلّ واحدٍ بناءً على عمله ونيّته .

وبشأن الأمر بالعدل والنّهي عن الجّور يحسن أن نذكر ما ثبت في الصّحيحين عن النّعمان بن بشير أنّه قال : نحلني أبي نُحْلاً[1] فقالت أمّي عمرة بنت رواحة لا أرضى حتّى تُشْهِد عليه رسول الله ﷺ فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكلَّ ولدك نحلت مثله ؟ قال : لا . قال : اتّقوا الله واعدلوا في أولادكم . وقال : لا أشهد على جَوْر . قال : فرجع أبي فردّ تلك الصّدقة[2] .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

ما أكثر الأوامر والنّواهي في الآيات الكريمات السّابقات . وإنّما يمتثل للأوامر والنّواهي الذين آمنوا . أمّا الذين كفروا فهم لا يعرفون حلالاً ولا حراماً . وإنّ هاتين الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن المؤمنين والكافرين على التّوالي وعن ثواب المؤمنين وعذاب الكافرين .

إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن أنّ الله سبحانه وعد المؤمنين الذين يعملون الصّالحات ووعده الحقّ بأنّ لهم مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً من الله سبحانه وتعالى هو الجنّة التي فيها

---

(١) يقال نَحَلَ الرّجُلَ نُحلاً (بضمّ النّون) أعطاه شيئاً .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٠ .

ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجمع بين الإيمان وعمل الصّالحات لأنّ الإيمان قلبي يحتاج إلى الدّليل الخارجيّ عليه وهو عمل الصّالحات .

وفي مقابل الجمع بين الإيمان وعمل الصّالحات في حقّ أصحاب الجنّة والنّعيم ، يجمع بين الكفر والتّكذيب بآيات الله تعالى في حقّ الذين كفروا كما تقرّر الآية الكريمة أنّهم أصحاب الجحيم والعياذ بالله . إنّهم بسبب استحقاقهم لها وخلودهم فيها غدوا أصحاباً لها لا يخرجون منها ولا يخفّف عنهم من عذابها ، وكذلك يجزي الله سبحانه وتعالى كلّ كفور .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

ما أكثر النّعم التي أشارت إليها الآيات الكريمات السّابقات التي يجب على العباد أن يقوموا بالشّكر لله تعالى عليها . وهذه الآية الكريمة تنصّ على واحدةٍ من هذه النّعم التي ينبغي على المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ أن يذكروها جيّداً وأن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى عليها . وللمفسّرين آراءٌ عدّةٌ في سبب نزول الآية الكريمة ، فمنهم من ذهب إلى كونها نزلت في قريش ومنهم من ذهب إلى كونها نزلت في يهود بني النّضير الذين همّوا بقتل المصطفى ﷺ بإلقاء الرّحى عليه لمّا جاءهم يستعينهم في دية العامريّين اللّذين قتلهما عمرو بن أميّة ، أو في كعب بن الأشرف من اليهود ، أو في اليهود الذين صنعوا له ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم ، أو في قصّة الأعرابي ، غورث بن الحارث الثّابتة قصّته في الصّحيح ، والذي أخذ سيف النّبيّ ﷺ الذي كان يستظل بشجرة وسلّ السّيف وأقبل على النّبيّ ﷺ فقال من يمنعك منّي قال الله عزّ وجلّ فأغمد الأعرابيّ السّيف[1] .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٩٤/٦ وتفسير ابن كثير ٣١/٢ .

والحقيقة أنّ نعم الله سبحانه وتعالى على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين في كفّ أيدي الأعداء عنهم لا تعدّ ولا تُحْصَى ، والمطلوب من المؤمنين أن يذكروا هذه النّعم ويشكروا لله تعالى عليها وأن يتّقوا الله تعالى وأن يتوكّلوا عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له . وبهذه المناسبة نحن نذكر جيّداً عصمة الله سبحانه وتعالى نبيّه من النّاس على نحو ما بيّن قوله تعالى في هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿ والله يعصمك من النّاس ﴾ وكان ﷺ يُحْرَس حتّى نزلت فقال انصرفوا فقد عصمني الله . رواه الحاكم[2] .

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

(٢) الجلالين .

نقض أهل الكتاب الميثاق

الآيات ١٢ - ١٩

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾

ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل : أخذ الله مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره[1] .

وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً : وبعثنا منهم اثني عشر كفيلاً كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه . والنّقيب في كلام العرب كالعريف على القوم غير أنّه فوق العريف[2] يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسّمع والطّاعة لله ولرسوله ولكتابه . وقد ذكر ابن عبّاس عن ابن إسحاق وغير واحدٍ أنّ هذا كان لمّا توجّه موسى عليه السّلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كلّ سبطٍ نقيب[3] والسِّبط : الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحدٍ . والسّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسمّوا الأسباط من السَّبط بحركتين وهو التّتابع . والأسباط ولد يعقوب عليه السّلام وهم اثنا عشر ولداً ، وُلِد لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ من النّاس واحدهم سِبْط[4] وإسرائيل

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٩٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/٩٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٢ .

(٤) تفسير القرطبيّ ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام[1] لقبٌ له[2] وهكذا لمّا بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ثلاثةٌ من الأوس وتسعةٌ من الخزرج[3] والمقصود أنّ هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النّبيّ ﷺ لهم بذلك وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنّبيّ ﷺ على السّمع والطّاعة[4] .

وقال الله إنّي معكم : أي بحفظي وكلاءتي ونصري[5] .

لئن أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي : ابتدأ ربّنا جلّ ثناؤه القسم فقال مقسماً لئن أقمتم معشر بني إسرائيل الصّلاة وآتيتم الزّكاة أي أعطيتموها من أمرتكم بإعطائها وآمنتم برسلي ، يقول : وصدّقتم بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني[6] وصدّقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي[7] .

وعزّرتموهم : أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحقّ[8] .

وأقرضتم الله قرضاً حسناً : وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته[9] .

لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم : اللّام واقعة في جواب القسم[10] يقول : لأغطّينّ بعفوي عنكم وصفحي عن عقوبتكم على سالف أجرامكم[11] التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم على ذنوبكم التي سلفت منكم من عبادة العجل وغيرها من موبقات ذنوبكم[12]

فقد ضلّ سواء السّبيل : سواء يعني به وسط . والسّبيل الطّريق[13] .

---

(١) تفسير القرطبيّ ٢٨١ .

(٢) الكشّاف ٢١٢/١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٢/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢/٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٩٧/٦ .

(٧) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

(٨) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

(٩) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

(١٠) انظر تفسير الطّبريّ ٩٨/٦ .

(١١) الأجرام بفتح الهمزة جمع الجرم بضم الجيم بمعنى الخطأ والذّنب .

(١٢) تفسير الطّبريّ ٩٨/٦ .

(١٣) تفسير الطّبريّ ٩٩/٦ .

أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم أن كفّ عنهم أيدي الذين همّوا أن يبسطوها إليهم بالسّوء . ومن الذين همّوا أن يفعلوا ذلك بل من الذين فعلوا ذلك وكفّ الله تعالى أيديهم بنو إسرائيل الذين يتحوّل إليهم السّياق . إنّ الآية الكريمة تقرّر في أسلوب القسم مستعملةً للتّوكيد قد التي تفيد التّحقيق وذلك في القول : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أخذ من بني إسرائيل الميثاق والعهد المؤكّد بيمينٍ وما شاكله بأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، كما بعث الله سبحانه وتعالى وأقام فيهم اثني عشر نقيباً من كلّ سبط وجماعةٍ وقبيلة التي آل إليها أبناء يعقوب عليه السّلام الاثنا عشر نقيبٌ وعريفٌ وكفيل بأن يخلصوا له العبادة جلّ وعلا وحده لا شريك له وأن يصدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه وأعطوا العهد المؤكّد بأن يفعلوا ما أمروا به وأن يجتنبوا ما نهوا عنه . وقد ذكر ابن عبّاس عن ابن إسحاق وغير واحدٍ أنّ هذا لمّا توجّه موسى عليه السّلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كلّ سبطٍ نقيب[1] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة قال لبني إسرائيل إنّي معكم بحفظي ورعايتي ، نصري وتأييدي ما دمتم معي تفعلون ما أمرتكم به وتجتنبون ما نهيتكم عنه : ﴿ وقال الله إنّي معكم ﴾ ومثل هذا المعنى نتبيّنه في خطاب الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا من أمّة محمّد في سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[2] : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ﴾ .

ثمّ ابتدأ ربّنا جلّ وعلا القسم فقال مقسماً : لئن أقمتم يابني إسرائيل الصّلاة وداومتم وواظبتم على أدائها بأركانها وشروطها وآتيتم الزّكاة ، التي فرضتها عليكم ، مستحقّيها وأصحابها كما بيّنت لكم وصدّقتم رسلي ونصرتموهم وأنفقتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي من المال الذي أعطيتكم إيّاه لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولامحونّ ذنوبكم ولأحطّنّ عنكم خطاياكم ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار : ﴿ وقال الله إنّي معكم لئن أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٢ .

(٢) الآية ٧ .

السَّبيل ﴾ أمّا من كفر من بني إسرائيل من بعد ما جاءته الآيات البيّنات فقد ضلّ سواء السّبيل وأخطأ الطّريق المستقيم الذي يفضي بسالكه إلى غايته وينتهي به إلى مقصوده .

ونستطيع أن نفهم قيمة الصّلاة من تقديمها في الذّكر ، وقيمة الزّكاة لاقترانها بالصّلاة في الذّكر الحكيم فيما يزيد على الثّمانين موضعاً .

ونستطيع أن نفهم أنّ بني إسرائيل قد ضلّوا سواء السّبيل بسبب كفرهم وجحدهم نعم الله تعالى ونقضهم الميثاق وقد تمثّل كلّ ذلك في أسوأ الأحوال حينما جحدوا نبوّة محمّد ﷺ وكتموا نعته الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة وذلك على غرار فعل النّصارى رغم أنّهم يجدون نعته ﷺ في الإنجيل . ويظل اليهود والنّصارى ينقضون الميثاق والعهد المؤكّد الذي أخذ عليهم باتّباع الرّسول النّبيّ الأمّيّ محمّد ﷺ وإلى ذلك العهد المؤكّد أشار قوله تعالى[1] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

والآية الكريمة التّالية تبيّن فسق بني إسرائيل وضلالهم عن سواء السّبيل .

فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

فبما نقضهم ميثاقهم : أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم[2] .

وجعلنا قلوبهم قاسية : غليظة يابسة عن الإيمان بي والتّوفيق لطاعتي منزوعةً منها

---

(١) سورة آل عمران ٨١ ، ٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

الرّأفة والرّحمة[1] وقاسية بالألف على تقدير فاعلة من قسوة القلب من قول القائل : قسا قلبه فهو يقسو وهو قاسٍ وذلك إذا غلظ واشتدّ وصار يابساً صُلْباً[2] .

يحرّفون الكلم عن مواضعه : يحرّفون كلام ربّهم الذي أنزله على نبيّهم موسى ﷺ وهو التّوراة فيبدّلونه ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جلّ وعزّ على نبيّهم ويقولون لجهّال النّاس هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيّه موسى ﷺ والتّوراة التي أوحاها إليه[3] .

ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به : وتركوا نصيباً وهو كقوله : نسوا الله فنسيهم . أي تركوا أمر الله فتركهم الله[4] وتركوا العمل به رغبةً عنه . وقال الحسن : تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلّا بها . وقال غيره : تركوا العمل فصاروا إلى حالةٍ رديئة فلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قويمة[5] .

ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم : الخائنة في هذا الموضع الخيانة ، وضع وهو اسمٌ موضع المصدر[6] يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك[7] وتطّلع بمعنى تظهر[8] .

إلّا قليلاً منهم : ممّن أسلم[9] .

فاعفُ عنهم : العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّيء ومنه العفو ، عفو الله تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلاً منه ، قال الخليل : وكلّ من استحقّ عقوبةً فتركته فقد عفوت عنه . يقال : عفا عنه يعفو عفواً . وهذا الذي قاله الخليل صحيح[10] .

واصفح : الصّفح ترك التّثريب وهو أبلغ من العفو ، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح ،

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٩٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/٩٩ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٠ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٣ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٠ .

(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٣ .

(٨) الجلالين .

(٩) الجلالين .

(١٠) انظر معجم مقاييس اللّغة « العفو » ٤/٥٦ .

وصفحت عنه أوليته منّي صَفْحةً جميلةً معرضاً عن ذنبه . وصَفْحُ الشّيء عَرْضه وجانبه كصَفْحَة الوجه وصَفْحَة السّيف وصَفْحة الحجر[1] وهذا هو عين النّصر والظّفر كما قال بعض السّلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وبهذا يحصل لهم تأليفٌ وجمعٌ على الحقّ ولعلّ الله أن يهديهم[2] .

إنّ الله يحبّ المحسنين : يعني به الصّفح عمّن أساء إليك . وقال قتادة : هذه الآية : فاعف عنهم واصفح ، منسوخة بقوله : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . الآية[3] .

تبيّن الآية الكريمة بعض مظاهر ضلال بني إسرائيل عن سواء السّبيل . إنّهم نقضوا الميثاق والعهد المؤكّد المأخوذ عليهم ، وبسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله سبحانه وتعالى وأبعدهم من رحمته . وحينما يكون ثمّة أشقياء بعيدون من رحمة الله تعالى فما الذي يتوقّع لقلوبهم التي لا يتسلّل إليها نور الإيمان بعد أن أوصدت كلّ المنافذ ؟ أن تكون القلوب قاسية فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً من الحجارة التي يتفجّر من بعضها الأنهار ويتشقّق بعضها الآخر فيخرج منها الماء ويهبط بعضها من خشية الله تعالى . وحينما ينقض القوم الميثاق ويلعنهم الله تعالى وتقسو قلوبهم فما الذي ينتظر من أناسٍ قلوبهم لا تخشع ، وعيونهم لا تدمع ، وآذانهم لا تسمع ، ما الذي ينتظر منهم تجاه آيات الله تعالى البيّنات ؟ أن يحرّفوا الكلم عن مواضعه ، بالتّغيير فيه والتبديل ، بالحذف والإضافة ، بإعلان ما شاءوا منه وكتمان ما أرادوا كتمانه ، بتأويله وصرف معناه عن وجهه الصّحيح .

أما وقد انتهى الأمر بالقوم إلى هذا الدّرك السّحيق من الجراءة على آيات الله تعالى فهل ينتظر من القوم أن يمتثلوا لمعاني آيات الله تعالى البيّنات التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام وممّا تضمّنته تلك الآيات نعت محمّد بن عبد الله ﷺ الذي كتموه وأخفوه ؟ لا ينتظر من القوم الامتثال لمعاني آيات الله تعالى البيّنات بل نسوا حظّاً ممّا ذكّروا به وتركوا نصيباً ممّا وُعِظوا وخوّفوا به . قال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به ﴾ .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصبهاني ٢٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٣/٢ وانظر تفسير الطّبري ١٠١/٦ .

وبما أنّ المعاصرين للمصطفى ﷺ من بني إسرائيل تتحقّق فيهم الخصال السّيّئة التي تتحقّق في آبائهم وأجدادهم وقد عرف عن الآباء والأجداد الجراءة على الله تعالى وعلى أنبيائه إلى الدرك الذي انتهوا معه إلى قتل بعضهم بغير حقّ ، فإن الآية الكريمة تجمع في نسق بين ماضي بني إسرائيل وحاضرهم بجامع اشتراك الجميع في الصّفات الواحدة ، وتقرّر صفةً سيّئة في اللّاحقين دليلاً على تحقّقها في السّابقين ، وهذه الصّفة السّيّئة غير الصّفات السّابقة التي قرّرتها الآية الكريمة ، وبما أنّ الصّفات السّيّئة السّابقة تتحقّق في السّابقين أصالة اللّاحقين تبعاً ، فإنّ هذه الصّفة السّيّئة اللّاحقة تتحقّق في اللّاحقين أصالةً في السّابقين ضمناً ، قال تعالى : ﴿ ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم ﴾ والمعنى : ولا تزال يا محمّد تطّلع على خيانةٍ من بني إسرائيل المعاصرين لك ، وما أكثر الأذى الذي ألحقه اليهود عليهم لعائن الله تعالى بالمصطفى ﷺ وبأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . وتستثني الآية الكريمة الفريق القليل الذي أسلم : ﴿ إلّا قليلاً منهم ﴾ .

ومع أنّ سورة المائدة من أواخر السّور نزولاً فإن هذه الآية الكريمة منها تأمر المصطفى ﷺ أن يعفو عن بني إسرائيل ويصفح : ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ والعفو ترك العقوبة . ولا يقف أمر الآية الكريمة عند هذا المستوى الرّفيع من حسن المعاملة لغير المسلمين المناوئين للإسلام أملاً في صلاحهم وعودتهم إلى جادّة الصّواب إنّما يتجاوزه إلى الأمر بالصّفح ، بمعنى الإقبال عليهم بصفحة الوجه دليل الرّضا إثر العفو ، وبمعنى ترك اللّوم والتّثريب بالقول دليلاً على الحرص على تأليف القلوب ، وجذب النّفوس ، واستلال السّخائم والضّغائن . وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها : ﴿ إنّ الله يحبّ المحسنين ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين بالعفو عمّن ظلمهم وأساء إليهم والصّفح عمّن مكر بهم وكاد لهم .

ومن المعروف أنّ العفو عن بني إسرائيل والصّفح لم يزدهم إلّا تمادياً في الأذى ، وقد نسخ العفو عنهم والصّفح بقوله تعالى في سورة براءة[1] : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ .

---

(١) الآية ٢٩ .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

فأغرينا بينهم : حرّشنا بينهم وألقينا كما تغرى الشّيء بالشّيء[1] .

كما أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل أخذه على الذين قالوا إنّا نصارى وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وترجمة معاني آيات الإنجيل إلى عمل ومنها اتّباع النّبي الأمّيّ محمّد بن عبد الله ﷺ حينما يبعث . وكما نسي بنو إسرائيل حظّاً ممّا ذكّروا به ونصيباً من تعاليم السّماء نسي النّصارى واتّبعوا أهواءهم وتفرّقت بهم السُّبل عن سبيل الله تعالى فأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، فكلّ فرقةٍ من النّصارى تكفّر الأخرى وتلعنها . وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سوف ينبّىء النّصارى يوم القيامة بما كانوا يصنعون في الدّنيا ويجازيهم بما كانوا يعملون ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٢ .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۖ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾

ويعفو عن كثير : ويسكت عن كثيرٍ ممّا غيّروه ولا فائدة في بيانه[1] ويترك أخذكم بكثيرٍ ممّا كنتم تخفون من كتابكم الذي أنزله الله إليكم[2] .

قد جاءكم من الله نور : يعني بالنّور محمّداً ﷺ الذي أنار الله به الحقّ وأظهر به الإسلام ومحق به الشّرك[3] .

وكتابٌ مبين : يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبيّنا محمّدٍ ﷺ[4] .

بعد أن قرّرت الآيتان الكريمتان السّابقتان نقض أهل الكتاب الميثاق بيّنت هذه الآية الكريمة البديل الصّحيح والطّريق القويم . وها هي ذي الآية الكريمة تخاطب أهل الكتاب من اليهود أتباع موسى عليه السّلام والنّصارى أتباع عيسى عليه السّلام بأنّهم قد جاءهم ووصل إليهم فعلاً رسول الله وخاتم النّبيّين محمّد بن عبد الله ﷺ الذي يجدون نعته مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل ، وها هو ذا المصطفى ﷺ بما علّمه الله تعالى وبما أوحى جلّ وعلا إليه يبيّن لأهل الكتاب كثيراً ممّا كانوا يخفونه على كثير من الخاصّة فكيف بالعامّة من أسرار المعارف وخفايا الأمور ، وها هو ذا ﷺ يعلنه عليهم ويذيعه على رءوس الأشهاد وهو النّبيّ الأمّيّ الذي لا يقرأ ولا يكتب . وتعتبر هذه الحقيقة من معجزاته ﷺ لأنّ ما يضنّون به من

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .

أسرارٍ يعلنها المصطفى ﷺ بإيحاءٍ من ربّه جلّ وعلا . وكما يعلن النّبيّ ﷺ كثيراً من أسرارهم هو يعفو عن كثيرٍ منها ويترك إعلان ما لا فائدة من إعلانه ولا خير في إظهاره . وهذا معناه أنّ المصطفى ﷺ إنّما يعلن على القوم ما ينبغي إعلانه ممّا يصلح به حالهم في الدّنيا والآخرة ولكنّهم في مجموعهم لا يحبّون النّاصحين : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ .

وتعتبر الجزئيّة الكريمة التّالية تبييناً للسّابقة وتوضيحاً : ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ﴾ إنّ التّبيين لأهل الكتاب الكثير ممّا يخفون إنّما تمّ بواسطة المصطفى ﷺ فهو الرّسول الكريم وهو النّور المبين . وإنّ وسيلة المصطفى ﷺ الكبرى لهذا التّبيين هي معجزته ﷺ الكبرى الخالدة القرآن الكريم والكتاب المبين .

والآية الكريمة التّالية تبيّن بعض نعوت هذا الكتاب المبين .

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

رضوانه : رضا الله[1] .

سبل السّلام : طرق النّجاة والسّلامة ومناهج الاستقامة[2] وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحدٍ عملاً إلّا به لا اليهوديّة ولا النّصرانيّة ولا المجوسيّة[3] .

ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور : من ظلمات الكفر والشّرك إلى نور الإسلام وضيائه[4] .

بإذنه : بإذن الله جلّ وعزّ . وإذنه في هذا الموضع تحبيبه إيّاه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه وخاتم الشّرك عنه وتوفيقه لإبصار سبل السّلام[5] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٤ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي يسّره ربّ العزّة للذّكر يهدي به الله سبحانه من اتّبع رضوانه جلّ وعلا وابتغى رضاه تعالى وحده لا شريك له ، يهدي به سبل السّلام ، وطرق النّجاة ، ومسالك السّلامة والاستقامة . يهدي به إلى دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه وتعالى شيئاً مِنْ أحدٍ ابتغى غيره من الأديان التي نسخها هذا الدّين الذي أكمله الله ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . وحينما يهتدي الإنسان بمحمّدٍ ﷺ السّراج المنير وبالقرآن الكريم النّور المبين والذّكر الحكيم والصّراط المستقيم فإنّه يخرج بإذن الله تعالى من ظلمات الكفر والشّرك والحيرة والضّلال إلى نور الإيمان ، وراحة الاهتداء ، وطمأنينة اليقين . وإنّ في الخروج من الظّلمات إلى النّور وفي اتّباع القرآن الكريم وسيّد المرسلين ، وهما عماد اتّباع رضوان الله تعالى ، سيراً في الصّراط المستقيم ، واهتداءً إليه ، وزيادة اهتداء وتقوى .

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قل فمن يملك من الله شيئاً : من ذا الذي يطيق أن يدفع من أمر الله جلّ وعزّ شيئاً فيردّه إذا قضاه ، من قول القائل : ملكت على فلانٍ أمره إذا صار لا يقدر أن ينفّذ أمراً إلّا به[1] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الدّين عند الله الإسلام بمعنى الاستسلام لله تعالى وحده بالخضوع والانقياد بالطّاعة والخلوص من الشّرك ، وذلك بعد أن قرّرت الآيات الكريمات السّابقات أخذ الله تعالى الميثاق على اليهود والنّصارى ابتداءً بأخذ الميثاق عليهم

---

(١) تفسير الطّبري ٦/١٠٥ .

بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وبعد أنْ قرّرت نقض كلٍّ من اليهود والنّصارى الميثاق ابتداءً بأهمّ بنوده وهو توحيد الله تعالى . وها هي ذي الآية الكريمة التي نحن بصددها تبدأ بتفصيل نقض النّصارى الميثاق وضلالهم عن سواء السّبيل علماً بأنّ الآية الكريمة التّالية تجمع بين اليهود والنّصارى في قَرَن . ويصحّ أن نستنتج من ابتداء الحديث بالنّصارى دور النّصارى الخطير في الأرض تبعاً لكثرتهم وقوّة شوكتهم ونشرهم كفرهم بين النّاس .

إنّ الآية الكريمة تقرّر كفر الذين قالوا من النّصارى إنّ الله هو المسيح ابن مريم . إنّ من ادّعى أنّ عيسى عليه السّلام إلهٌ أو ثالث ثلاثة وخرج به من دائرة البشريّة إلى دائرة الألوهة في أيّ صورةٍ من الصّور كافرٌ بنصّ القرآن الكريم . والمعروف أنّ اللّام تفيد التّوكيد ، وأنّ قد تفيد التّحقيق في القول : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ويلاحظ أنّ الآية تنصّ على أنّ المسيح عليه السّلام هو ابن مريم ، والمعروف أنّ أكثر المواضع في القرآن الكريم التي جاء فيها ذكر عيسى عليه السّلام جاء فيها النّصّ على أنّه عليه السّلام ابن مريم تنبيهاً إلى قدرة الله تعالى التي تجلّت في خلق عيسى عليه السّلام من غير أبٍ ، وآدم عليه السّلام من غير أبوين ، وحوّاء من ضلع آدم عليه السّلام ، وسائر البشر من ذكرٍ وأنثى . إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كلّ شيء ولا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون .

ودليلاً على كون عيسى عليه السّلام عبد الله ورسوله قوله عزّ من قائل : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ﴾ والمعنى قل يا محمّد ، من هذا الذي يملك من الله شيئاً ومن هذا الذي يستطيع أن يمنع شيئاً أراده الله تعالى ومن ذلك أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ؟ والجواب معروف : لا أحد . وها هو ذا جلّ وعلا يهلك مريم ابنة عمران ويهلك الخلائق وقد قال عزّ وجلّ[1] : ﴿ كلّ من عليها فان . ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ فهل لدى الخلائق سوى الامتثال للمشيئة ابتداءً بعيسى عليه السّلام عبد الله ورسوله ؟ ليس لدى الخلائق سوى الامتثال التّام للمشيئة .

---

(١) سورة الرّحمن ٢٦ ، ٢٧ .

ودليلاً على كامل المشيئة وتتمّةً لدلائل القدرة المطلقة للذّات العليّة يجيء القول : ﴿ ولله ملك السّماوات والأرض وما بينهما ﴾ وهل يخرج شيءٌ من الخلائق عن هذه الحدود ؟ لا يخرج شيءٌ مطلقاً .

ودليلاً على ما اقترن بخلق عيسى عليه السّلام من قدرةٍ على الخلق والإيجاد من العدم ومن غير الطّريق المألوف يكون النّصّ على الخلق دون سواه في القول : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ .

وبما أنّ كلّ ما سبق دليلٌ على القدرة المطلقة للذّات العليّة تختم الآية الكريمة بما يدلّ على هذه القدرة : ﴿ والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ وإنّ ممّا يدخل في دائرة قدرته جلّ وعلا المطلقة إيجاد عيسى من غير أبٍ ، وإهلاكه هو وأمه لو أراد إهلاكهما دليلاً على كونه عليه السّلام عبداً لله تعالى ورسولاً .

وسمّي المسيح ، قال بعض السّلف : لكثرة سياحته . وقيل : لأنّه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما . وقيل : لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى[1] كما قيل لأنّه مسيحٌ من الذّنوب خالٍ من العيوب .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه : أي كأبنائه في القرب والمنزلة وهو كأبينا في الرّحمة والشّفقة[2] والأحبّاء جميع حبيب[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٣/١ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٦ .

قل فلم يعذبكم بذنوبكم : يقول الله لنبيّه محمّد ﷺ : قل هؤلاء الكذبة المفترين على ربّهم فلم يعذّبكم ربّكم ، يقول : فلأي شيءٍ يعذّبكم ربّكم بذنوبكم إن كان الأمر كما زعمتم أنّكم أبناؤه وأحبّاؤه فإنّ الحبيب لا يعذّب حبيبه وأنتم مقرّون أنّه معذّبكم ، وذلك أنّ اليهود قالت : إنّ الله معذّبنا أربعين يوماً عدد الأيّام التي عبدنا فيها العجل ثمّ يخرجنا جميعاً منها[1] .

سبب النزول :

عن ابن عبّاس قال : أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أحي ويحري بن عمرو وشاس ابن عديّ فكلّموه فكلّمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته فقالوا ما تخوّفنا يا محمّد نحن والله أبناء الله وأحبّاؤه كقول النّصارى فنزلت الآية فيهم[2] .

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة تحدّثت عن خطأٍ متعلّق بالنّصارى باعتبارهم كثيري العدد وباعتبار الخطأ جليل الخطر لعمومه وانتشاره فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن خطأٍ آخر مشترك بين اليهود والنّصارى ألا وهو زعمهم بأنهم أبناء الله وأحبّاؤه ، بمعنى أنّهم كأبنائه في القرب والمنزلة وهو كأبيهم في الرّحمة والشّفقة . وبما أنّ القوم كاذبون في زعمهم وبما أنّ كلّ نفسٍ ها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فقد كان ثمّة إنكارٌ على القوم في هيئة هذا السّؤال : ﴿ قل فلم يعذّبكم بذنوبكم ﴾ والمعنى قل يا محمّد هؤلاء الكذبة المفترين على ربّهم : كيف تزعمون أنّكم أبناء الله وأحبّاؤه في الوقت الذي تعترفون فيه أنّ الله سبحانه وتعالى سيعذّبكم أربعين يوماً عدد الأيّام التي عبدتم فيها العجل ؟ كيف يمكن التّوفيق بين الزّعم بأنّكم أبناء الله وأحبّاؤه والحبيب لا يعذبّ حبيبه فكيف يعذّب الأب ابنه وبين اعترافكم بتعذيب الله لكم أربعين يوماً ؟ إنّه لا يمكن التّوفيق بين هذا وذاك بل إنّ كلاً من القضيّتين تنقض الأخرى .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ اليهود والنّصارى بعض البشر الذين خلقهم الله تعالى ، يغفر لمن يشاء منهم ويعذّب من يشاء . والذي يلفت النّظر حقّاً هو أنّ الآية الكريمة نصّت على العذاب وحده في القول : ﴿ قل فلم يعذّبكم بذنوبكم ﴾ ردّاً على زعم أهل الكتاب ، كما نصّت على الذّنب تنبيهاً إلى سبب تعذيب الله تعالى القوم : ﴿ قل فلم يعذّبكم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٦ .

(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٦/١٠٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣٤ .

بذنوبكم ﴾ وبعد النّصّ على العذاب وحده كان ثمّة نصٌّ على المغفرة والعذاب على التّوالي في القول : ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ﴾ فالمغفرة تتقدّم دليلاً على أنّ الحديث هنا منفصل أو مستقلّ أو مستأنف وتنبيهاً إلى أنّ مغفرة الله سبحانه وتعالى تسبق عذابه ورحمته تسبق غضبه وأنّه جلّ وعلا الفعّال لما يريد ولا يسأل عمّا يفعل .

وتعميقاً للمعاني السّابقة يجيء القول : ﴿ ولله ملك السّماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ فللّه سبحانه وتعالى السّماوات والأرض وما فيهنّ ملكاً وخلقاً وعبيداً ، وله جلّ وعلا يصير الخلائق من أجل الحساب فالثّواب أو العقاب .

ومع أنّ التّشابه كبير بين هذه الجزئيّة الأخيرة وبين الجزئيّة الأخيرة في الآية الكريمة السّابقة فإنّ الجزئيّة السّابقة نصّت على الخلق : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ تنبيهاً إلى خلق الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام من غير أبٍ ، تلا ذلك النّصّ على القدرة في القول : ﴿ والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ أمّا في هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة التّالية فقد جاء النّصّ على الخاتمة والنّهاية أعني المصير قال تعالى : ﴿ ولله ملك السّماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩

على فترةٍ من الرّسل : بعد مدّة متطاولة[1] وانقطاعٍ من الرّسل . والفترة الفعلة من قول القائل : فتر هذا الأمر يفتر فتوراً وذلك إذا هدأ وسكن ، وكذلك الفترة في هذا الموضع معناها السّكون ، يراد به سكون مجيء الرّسل وذلك انقطاعها[2] وبين ميلاد عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام ٥٦٩ سنة وبين الميلاد والبعثة ٦٠٩ سنة وبين الميلاد والهجرة ٦٢٢ سنة وثمّة اختلافٌ بين العلماء في التّواريخ والله أعلم[3] ثبت في صحيح البخاريّ عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٧ .

(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٦/١٠٧ .

أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ أولى النّاس بابن مريم لأنا ليس بيني وبينه نبيّ[1] .

أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير : لئلّا تحتجّوا وتقولوا[2] إذا عذّبتم[3] لم يأتنا من عندك رسول يبيّن لنا ما نحن عليه من الضّلالة[4] .

ثمّة وجه شبهٍ بين صدر هذه الآية الكريمة وصدر الآية الكريمة الخامسة عشرة : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون .. ﴾ وكلٌّ من الآيتين الكريمتين تجيء إثر الحديث عن كلٍّ من اليهود والنّصارى .

وهذه الآية الكريمة تضيف إلى ما تضمّنته الآية الكريمة الخامسة عشرة جديداً إذ تقرّر أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ قد جاء أهل الكتاب كما جاء سواهم ومن ثمّ فرسالة محمّد ابن عبد الله ﷺ رسالةٌ عالميّةٌ منذ فجرها ، كما تقرّر أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ قد جاء بعد انقطاع من الرّسل ومدّةٍ متطاولة إذ بين ميلاد محمّد بن عبد الله ﷺ وميلاد عيسى عليه السّلام أقرب رسولٍ إليه خمسمائة وتسعٌ وستّون سنة .

والآية الكريمة تقرّر بعد ذلك معنى قوله تعالى[5] : ﴿ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً ﴾ فالله سبحانه وتعالى إنّما بعث محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين ، ورسول ربّ العالمين ، للنّاس كافّةً بشيراً ونذيراً لئلّا يقول أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ما جاءنا من بشيرٍ يبشّرنا بثواب الله تعالى وجنّته ورضوانه إن نحن أطعنا الله تعالى واتّبعناه وآمنّا به ، وما جاءنا من نذير ينذرنا ويحذّرنا من عذاب الله تعالى وغضبه وناره إن نحن عصيناه جلّ وعلا ولم نتّبع رسوله . إنّ الآية الكريمة في خطابها لأهل الكتاب وغيرهم تبعٌ لهم تؤكّد أنّهم قد جاءهم من الله تعالى بشيرٌ لمن أطاع الله بالجنّة ونذيرٌ لمن عصاه تعالى بالنّار ، وهذا البشير النّذير هو محمّد بن عبد الله ﷺ السّراج المنير ، والنّور المبين ، ورحمة الله تعالى المهداة ونعمته جلّ وعلا المسداة . وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله تعالى على كلّ شيءٍ قدير ، ومن ذلك إرسال الرّسل وحساب الخلائق وجزاؤهم ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ . ومن البيّن أنّ صفة القدرة المطلقة للذّات العليّة جاءت الإشارة إليها كذلك في الآية الكريمة قبل السّابقة : ﴿ والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٦ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/١٠٨ .

(٥) سورة الإسراء ١٥ .

القدس محرّمة على بني إسرائيل

الآيات ٢٠ - ٢٦

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

إذ جعل فيكم أنبياء : يأتونكم بوحيه ويخبروئكم بآياته الغيب ولم يعط ذلك غيركم في زمانكم هذا[1] كلّما هلك نبيٌّ قام فيكم نبيّ من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لايزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذّرون نقمته حتّى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السّلام ثمّ أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرّسل على الإطلاق محمّد بن عبدالله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السّلام وهو أشرف من كلّ من تقدّمه منهم ﷺ[2] .

وجعلكم ملوكاً : أصحاب خدمٍ وحشم[3] عن ابن عبّاس في قوله : وجعلكم ملوكاً ، قال : الخادم والمرأة والبيت[4] .

وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين : يعني عالمي زمانكم ، فإنّهم كانوا أشرف النّاس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم[5] عن ابن عبّاس : المنّ والسّلوى والحجر والغمام[6] .

أشارت آيات القسم السّابق إلى ضلال أهل الكتاب عن سواء السّبيل ، ولمّا كان المصطفى ﷺ بعد الهجرة يعاني من بني إسرائيل ، تعنّتاً وعداوة ، فقد نبّه تحوّل الحديث إلى بني اسرائيل على هذه الصّفات المقيتة في القوم ، ولمّا كان من حكم نزول القرآن الكريم منجّماً على المصطفى ﷺ تثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام والتّسرية عنه ، فقد كان

---

(١) تفسير الطبري ٦ /١٠٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٣٦ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٣٦ وتفسير الطّبريّ ٦ /١٠٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٦) تفسر الطّبريّ ٦ /١٠٩ .

الحديث عن تعنّت بني اسرائيل مع رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السلام ، وهذا معناه أنّه لايستطيع القوم المعاصرون للمصطفى ﷺ التّخلّص من الصّفات السّيئة الرّاسخة في جذورهم وأعماقهم وهم البعيدون عن الله تعالى الشّديدو العداوة لرسل الله تعالى وأوليائه .

والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ قائلةً : واذكر يامحمّد إذ قال موسى بن عمران لقومه بني إسرائيل ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروا له جلّ وعلا إذ جعل فيكم أنبياء من لدن إبراهيم عليه السّلام وحتّى عيسى ابن مريم عليه السّلام دون انقطاع وجعلكم ملوكاً ذوي خدمٍ وحشم وثراءٍ وجاه وآتاكم ما لم يؤت أحداً من عالمى زمانكم من النّعم الّتي لاتعدّ والآلاء الّتي لاتُحْصَى . وقد جاء في سورة الجاثية[1] قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوة ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على العالمين . وآتيناهم بيّناتٍ من الأمر فما اختلفوا إلاّ من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم . إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

وهذه الأمة المسلمة أمّة محمّد ﷺ أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعةً وأقوم منهاجاً وأكرم نبيّاً وأعظم ملكاً وأغزر أرزاقاً وأكثر أموالاً وأولاداً وأوسع مملكةً وأدوم عزّاً قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ﴾[2] .

يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة : عن ابن عبّاس قال : هي أريحاء وقيل : إنّ الأرض المقدّسة دمشق وفلسطين وبعض الأردنّ[3] والأرض المقدّسة : المطهّرة المباركة[4] ويقول ابن كثير[5] : « عن ابن عبّاس في قوله : ادخلوا الأرض المقدّسة ، قال : هي الطّور وما حوله .

---

(١) الآية ١٦ ، ١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٠ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٠ وتفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

وكذا قال مجاهد وغير واحد وروى سفيان الثّوريّ عن أبي سعيد البقّال عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : هي أريحاء وكذا ذكر عن غير واحدٍ من المفسّرين وفي هذا نظر لأنّ أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس ، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوّهم فرعون اللّهمّ إلاّ أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السّدّي فيما رواه ابن جرير عنه لا أنّ المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطّور شرقيّ بيت المقدس » ويرى ابن كثير أنّ المراد بالأرض المقدّسة بيت المقدس وهو الرّأي الّذي نرتئيه يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « ثمّ قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السّلام لبني إسرائيل على الجهاد والدّخول إلى بيت المقدس الّذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لمّا ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيّام يوسف عليه السّلام ثمّ لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبّارين قد استحوذوا عليها وتملّكوها فأمرهم رسول الله موسى عليه السّلام بالدّخول إليها وبقتال أعدائهم وبشّرهم بالنّصرة والظّفر عليهم فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره فعوقبوا بالذهّاب في التّيه والتّمادي في سيرهم حائرين لايدرون كيف يتوجّهون إلى مقصد مدّة أربعين سنةً عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى » .

الّتي كتب الله لكم : أي الّتي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنّه وراثة من آمن منكم[2] أو يكون المعنى : الّتي أثبت في اللّوح المحفوظ أنّها لكم مساكن ومنازل دون الجبابرة الّتي فيها[3] .

ولاترتدّوا على أدباركم : أي ولا تنكلوا عن الجهاد[4] ولاترجعوا القهقرى مرتدّين على أدباركم يعني إلى ورائكم[5] .

فتنقلبوا خاسرين : فتنصرفوا خائبين[6] .

في الآية الكريمة السّابقة يأمر موسى عليه السّلام قومه أن يذكروا نعمة الله تعالى

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦ /١١١ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٦ /١١١ .

عليهم ويشكروا له جلّ وعلا آلاءه . وفي هذه الآية الكريمة التّالية يأمر موسى عليه السّلام قومه الّذين نجّاهم الله تعالى من العذاب المهين ، من فرعون الّذي كان عالياً من المسرفين والّذين عادوا إلى الأرض الّتي بارك الله تعالى فيها أرض الشّام ، الّتي كان فيها يعقوب عليه السّلام وآله حتّى جاءوا إلى يوسف عليه السّلام عزيز مصر ، يأمر موسى عليه السّلام قومه بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وأن يقاتلوا الجبّارين من العمالقة الّذين تملّكوا بيت المقدس . ويبشّر موسى عليه السّلام بني إسرائيل قومه بأنّ الله سبحانه وتعالى قد كتب لهم الأرض المقدّسة إن هم أطاعوا الله تعالى وجاهدوا في سبيله وأطاعوا موسى عليه السّلام الّذي أمرهم بقتال الجبّارين ، وإن هم لم يرتدّوا على أدبارهم ولم ينكصوا على أعقابهم ولم يرجعوا القهقرى عن ميادين القتال ومواطن الرّجولة ، وإن هم لم ينقلبوا خاسرين بسبب جبنهم ولم يرتدّوا خائبين بسبب نكوصهم عن القتال .

وماذا كان جواب بني إسرائيل لموسى عليه السّلام الّذي يبشّرهم بوعد الله تعالى لهم بالنّصر إن هم امتثلوا أمره عليه الصّلاة والسّلام وجاهدوا في سبيل الله تعالى ؟ الجواب في الآية الكريمة التّالية .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

إنّ فيها قوماً جبّارين : أي ذوي خِلَق هائلة وقُوىً شديدة[1] وأصل الجبّار المصلح أمر نفسه وأمر غيره ثمّ استعمل في كلّ من اجترّ نفعاً إلى نفسه بحق أو باطل طلب الإصلاح لها حتّى قيل للمتعدّي إلى ما ليس له بغياً على النّاس وقهراً لهم وعتوّاً على ربّه جبّار ، وإنّما هو فعّال من قولهم جبر فلانٌ هذا الكسر إذا أصلحه ولأمه[2] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ موسى عليه السّلام أمر قومه بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة مدينة الجبّارين ونهاهم عن الارتداد على أدبارهم ، وهذه الآية الكريمة التّالية

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٣٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٦ /١١١ .

تبيّن ردّ قوم موسى الجبناء الأذلّة . إنّهم يقولون : ﴿ ياموسى ﴾ هكذا في الطّريقة الّتي تدلّ على ما فُطِروا عليه من جراءةٍ على رسل الله تعالى وبذاءة لسانٍ وقلّة حياء .. إنّهم لايقولون مثلاً يارسول الله إنّما يقولون : ﴿ ياموسى ﴾ وهم يبّينون أنّ في الأرض المقدّسة قوماً جبّارين ، أقوياء الأجساد ، قساة القلوب ، غلاظ الأكباد . ونستطيع أن نفهم من الضمير : ﴿ إنّ فيها ﴾ العائد على الأرض أنّه يشمل بيت المقدس وما جاوره من مكان ، ولكنّه يشمل المدينة أساساً بدليل مجيء لفظ الباب في الآية الكريمة التّالية . وبناءً على وجود الجبّارين في الأرض فإنّ بني إسرائيل يقولون بكلّ وقاحةٍ لموسى عليه الصّلاة والسّلام قائدهم بأنّهم لن يدخلوا أرض الجبّارين حتّى يخرجوا منها ، فإن يخرج الجبّارون منها فإنّهم داخلون . وكيف يخرج الظّالمون من أيّ مكانٍ احتلّوه مهما كان ضعفهم ؟ هل يخرجون دون قتال ؟ لا . وكيف يخرج دون قتالٍ أولئك الجبّارون الطّغاة البغاة ؟ إنّ بني إسرائيل يريدون الدّخول دون بذل أدنى عناء شأن الجبناء الأذلّة في كلّ زمانٍ ومكان .

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

قال رجلان : من قوم موسى[1] يقال إنّهما يوشع بن نون فتى موسى وكالب بن يوفنا ختن موسى[2] والختن زوج الابنة . قال ذلك ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وعطيّة والسّدّى والرّبيع بن أنس وغير واحدٍ من السّلف والخلف رحمهم الله[3] ويقال إنّ هذين الرّجلين من النقباء الاثني عشر[4] الّذين أشار إليهم قوله تعالى في هذه السّورة الكريمة[5] : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٣٨ وتفسير الطّبريّ ٦ /١١٢ و ١١٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٣٨ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٣ .
(٥) الآية ١٢ .

أمر موسى عليه السّلام قومه بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة الّتي فيها الجبّارون مبيّناً وعد الله تعالى لهم بأنّه قد كتب جلّ وعلا لهم الأرض الّتي يعني الاستيلاء عليها النّصر على الأعداء ولكن القوم جبنوا ونكصوا على أدبارهم وعبّروا عن خوفهم من الجبّارين . وتشاء إرادة الله تعالى أن يحرّض بني إسرائيل على القتال في المجلس ذاته رجلان من النّقباء الاثني عشر ، ويفهم من ذلك ضمناً أنّ هذين الرّجلين سيكونان من بين الدّاخلين على الجبّارين ، ولكنّ القوم أكدّوا جبنهم وفشلهم ، خوفهم وهلعهم .

والآية الكريمة تقرّر أنّ رجلين من قوم موسى عليه السّلام ، ويقال إنّهما من النّقباء الاثني عشر ، قد أنعم الله سبحانه وتعالى عليهما بالفهم الصحيح والعمل المليح والعقل الرّاجح والامتثال للأوامر والنّواهي ، وكلّ ذلك ثمرة خوفهما الله تعالى وخشيتهما له جلّ وعلا ، تقرّر الآية الكريمة أنّ رجلين تلك صفاتهما قالا لبني إسرائيل من قوم موسى عليه السّلام ادخلوا على الجبارين باب المدينة فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون بإذن الله تعالى . ويأمر الرّجلان بني إسرائيل بأن يتوكّلوا على الله تعالى إن كانوا مؤمنين حقّا .

ونستطيع أن نفهم من الجمع بين خوف العباد لله تعالى والإنعام عليهم من الله تعالى بالفضل العظيم والخير العميم معنى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ واتّقوا الله ويعلّمكم الله ﴾.

ونستطيع أن نفهم أن العزيمة يجب أن تعتمد على التّوكّل على الله تعالى وبذلك نستطيع أن نفهم من الجمع بين الدّخول على الأعداء بقصد الظّفر وبين التّوكل على الله تعالى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ فإذا عزمت فتوكّل على الله . إنّ الله يحب المتوكلين ﴾ .

ومن البيّن أنّ القول الّذي جرى على لسان الرّجلين كان أمام موسى عليه السلام ، ويصحّ أن يكون أمام أخيه هارون عليه السّلام أيضاً . وهو قولٌ حلّ محلّ الرّضا منهما عليهما الصّلاة والسّلام لذا كان الخطاب من القوم بعد ذلك مبنيّاً على هذا الكلام ، وهو خطابٌ موجّه لموسى عليه السّلام .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٩ .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾

تبيّن هذه الآية الكريمة الدّرك السّحيق الّذي انتهى إليه قوم موسى الّذين جبنوا عن قتال أعداء الله تعالى رغم كون موسى عليه السّلام قائدهم ووعد الله تعالى لهم بالنّصر والظّفر على الأعداء إن هم قاموا بأبسط الأمور الّتي يتطلّبها الموقف ألا وهو مجرّد الدّخول على الجبّارين باب مدينتهم التي كتبها الله تعالى لبني إسرائيل لأن الجبّارين صور لاحقائق وأجسام لاروح فيها لأنّها خاويةٌ من حرارة الإيمان وبرد اليقين .

لقد انتهى الإسفاف بالقوم إلى تكرار قولهم السّابق الّذي ينمّ عن وقاحتهم وقلّة حيائهم في مخاطبة رسول الله تعالى إليهم : ﴿ ياموسى ﴾ وإلى تكرار معنى قولهم السّابق بعدم دخولهم باب المدينة على القوم ، وتأكيد القول بما يفهم معه أنّه لا أمل في تغيير القوم من موقفهم ولا أمل في صلاحهم : ﴿ قالوا ياموسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ﴾ إنّ بني إسرائيل مهما طالت بهم حياة فإنّهم لن يدخلوا باب المدينة مادام الجّبارون يسكنونها .

ويصل القوم إلى المدى الّذي ليس وراءه مدى في الجراءة على رسول الله تعالى موسى عليه السّلام بل في الجراءة على الله تعالى وذلك في القول الّذي جرى على لسانهم والّذي تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم : ﴿ فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون ﴾ وكأنّ القوم ينتظرون ذهاب الجبارين بالطريقة التي اقترحوها وبذلك يدخلون المدينة وقد خلت من الجبّارين . ومن البيّن أنّه لاحمق أبعد من هذا الحمق ولاجبن أبعد من هذا الجبن .

وانظر إلى القول الّذي يجرى على لسانهم : ﴿ إنّا هٰهنا قاعدون ﴾ وإلى دلالته الأكيدة على حرص بني إسرائيل على حياة ، أيّ حياة . وتفسير ذلك أنّ جملة قعد في اللّغة العربّية تفيد هيئة القعود وتضيف إلى ذلك الإيحاء باتجاه حركة القاعد من أعلى إلى أسفل إذ يقال كان قائماً فقعد ، بعكس جملة جلس مثلاً الّتي تدلّ على هيئة الجلوس وتضيف الى ذلك الإيحاء باتجاه حركة الجالس من أسفل إلى أعلى إذ يقال كان مضطجعاً فجلس .

إنّ القول : ﴿ إنّا ههنا قاعدون ﴾ يدلّ على حرص القوم على القعود واستمرائهم للذّلّ والهوان والاستخذاء ، فهاهم أولاء يحرصون على قعود الذّل اختياراً للذّلّ وإيثاراً له بعد قيام العزّة الّذي هم فيه ، فلانامت أعين الجبناء .

وإنّ هذه الآية الكريمة التي يجيء فيها على لسان قوم موسى عليه السّلام القول خطاباً له عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ﴾ يذكّرنا بالموقف المقابل المشرّف للمسلمين يوم بدرٍ بقيادة المصطفى ﷺ وقد أزفت ساعة اللّقاء وحان وقت الجدّ وحينما سأل المصطفى ﷺ فئته المسلمة لله ربّ العالمين وكانت زهاء ثلاثمائة رجل بينما الأعداء بين التسعمائة والألف كان من تلك الفئة المسلمة الصّادقة الجواب الّذي قرّت معه عين المصطفى ﷺ وفرح به قلبه وتهلّل له وجهه عليه الصّلاة والسّلام . فلنصغ لما يقول التّاريخ في هذا الشّأن وقد أتى المصطفى ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم . يقول ابن إسحاق[1] : « فاستشار النّاس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصّدّيق فقال وأحسن ، ثمّ قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله : امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون . فوالّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالَدْنا معك من دونه حتّى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به ، ثمّ قال رسول الله ﷺ : أشيروا عليّ أيّها النّاس ، وإنّما يريد الأنصار ، وذلك أنّهم عدد النّاس وأنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله ، إنّا بُرَآء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَهُ إلاّ ممّن دَهِمه[3] بالمدينة من عدوّه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍ من بلادهم . فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنّك تريدنا يارسول الله قال : أجل قال : فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ماجئت به هو الحقّ وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة فامْضِ

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٢ /٢٥٣ .

(٢) برك الغِماد : موع بناحية اليمن .

(٣) دهمه أي فجأه .

يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالّذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منّا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً إنّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُق في اللّقاء ، لعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك ، فَسِرْ بنا على بركة الله ، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك ثمّ قال : سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين ، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وروى الإمام أحمد أنّ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إليّ ممّا عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله يارسول الله لانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون ، ولكنّ نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسرّ بذلك . وهكذا رواه البخاري في المغازى وفي التفسير[1] .

قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

قال ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي : لا أقدر على أحدٍ أن أحمله على ما أحبّ وأريد من طاعتك واتّباع أمرك ونهيك إلاّ على نفسي وعلى أخي[2] .

فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين : افصل بيننا وبينهم بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم فتبعدهم منّا[3] .

قليلٌ هم الّذين كانوا من بني إسرائيل مستعدّين لأن يدخلوا على الجبّارين مدينتهم ، ومن هؤلاء الرّجلان اللّذان أنعم الله تعالى عليهما وكانا يخافان الله تعالى مع آخرين ، ولعلّ هؤلاء نواة الجيل الجديد الّذي تحقّق على يديه دخول مدينة الجبّارين ، وكان موسى عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٣٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٦ .

السّلام لايملك فعلاً إلاّ نفسه وأخاه هارون عليهما السّلام ولايقدر أن يحمل سواهما على طاعة الله تعالى وامتثال الأوامر . أما وقد وجد موسى عليه السّلام نفسه الكريمة في ذلك الموقف الصّعب ، بأن يعصيه عليه السّلام قومُه وهو رسول الله تعالى إليهم وهو القائد ، فقد جرى على لسانه ما كان مستقرّاً في أعماقه من كونه لايملك من يحمله على طاعة الله تعالى سوى نفسه وأخيه ، ودعا الله سبحانه وتعالى من أعماقه أن يفرق بينه وبين قومه الفاسقين ، وأن يفصل بينهما وبين القوم الخارجين على طاعة الله تعالى وأن يقضي فيهم بحكمه وهو أحكم الحاكمين جلّ وعلا .

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

فلا تأس على القوم الفاسقين : فلا تحزن . يقال منه أسى فلانٌ على كذا يأسى أسىً وقد أسيت من كذا أي حزنت ومنه قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم ... يقولون لاتهلك أسىً وتجمّل

يعني لاتهلك حزناً[1] .

بسبب مخالفة بني إسرائيل أوامر الله تعالى وعصيانهم رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام ونكوصهم عن القتال في سبيل الله تعالى وجبنهم عن الجهاد ، وارتدادهم القهقرى على أدبارهم عن دخولهم على الجبّارين مدينتهم ، واستجابة الله تعالى دعوة موسى عليه السّلام بأن يفرق بينهم وبين القوم الفاسقين كتب الله سبحانه وتعالى التّيه على بني إسرائيل وحرّم عليهم بيت المقدس . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد حرّم على بني إسرائيل الأرض المقدّسة ومدينة بيت المقدس والأرض المباركة أرض الشام . وبهذا يتبيّن الدّليل من القرآن الكريم على أنّ بني إسرائيل لاحق لهم في شيءٍ من تلك الأرض المقدّسة فكيف بالقدس الشريف ، هذا إلى أنّ المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين هو

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٩ .

الوارث الشّرعيّ لمقدّسات النّبيّين . وها هو ذا ﷺ يسرى الله تعالى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . ففي مكّة المكرّمة مسجد وفي القدس الشريف مسجد والمسجد مكان العبادة للمسلمين وحدهم .

وكما حرّم الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل الأرض المقدّسة ضرب عليهم التيه أربعين سنة في شبه جزيرة سيناء . عن ابن عبّاس قال : لمّا دعا موسى قال الله فإنّها محرّمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض قال : فدخلوا التّيه فكلّ من دخل التّيه ممّن جاوز العشرين سنةً مات في التّيه قال : فمات موسى في التّيه . ومات هارون قبله . قال : فلبثوا في تيههم أربعين سنة فناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبّارين فافتتح يوشع المدينة[1] .

وتنهي الآية الكريمة موسى عليه السلام عن أن يحزن على القوم الفاسقين الّذين خرجوا عن الصّراط المستقيم بعصيانهم أوامر الله تعالى وأوامر موسى عليه السّلام .

وإذا كنّا نفهم من التحريم أنّه أبديّ فإنّه يحسن بناءً على ذلك أن نقف في أثناء التلاوة على قوله تعالى : ﴿ فإنّها محرّمة عليهم ﴾ ثمّ نستأنف التلاوة وبذلك تتعلّق الأربعون سنّة بجملة ﴿ يتيهون في الأرض ﴾ وتكون التلاوة بعد ذلك على هذا النحو : ﴿ أربعين سنةً يتيهون في الأرض ﴾ ومن البّين أنّنا هنا بصدد ما يسمّى تعانق الوقف[2] .

وإذا صحّ ما يقال من أنّ بني إسرائيل دخلوا الأرض المقدّسة بعد مضيّ الأربعين سنةً فذلك معناه أنّه خلال الأربعين سنة حلّ جيلٌ جديدٌ محلّ الجيل القديم الرّافض للجهاد النّاكص على عقبيه . والحقيقة أنّ هذا درسٌ لنا نحن المسلمين مفاده أنّ الأربعين سنة كفيلةٌ بإذن الله تعالى لتنشئة الجيل المسلم القادر على رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى وحده لاشريك له . فهل الأربعون سنة تبدأ من احتلال اليهود لفلسطين أم من استيلائهم على المسجد الأقصى ؟ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١١٧ وانظر تفسير ابن كثير ٢ /٤٠ .

(٢) بمعنى أنّه إذا وقف على أحد الموضعين لايصحّ الوقف على الآخر .

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا
وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

الآيات ٢٧ - ٣٢

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

واتل عليهم : أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم[١] .

نبأ ابني آدم : خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النّعمة وتقبّل القربان[٢] .

بالحقّ : أي على الجليّة والأمر الّذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان[٣] .

إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر : إذ قرّبا إلى الله تعالى قرباناً وهو كبشٌ أو بقرة لهابيل ، وزرع (سنابل قمح) لقابيل وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل صاحب زرع[٤] والقربان على وزن الفُعلان من قول القائل قرب كما الفرقان الفعلان من فرق والعدوان من عدا . وكانت قرابين الأمم الماضية قبل أمّتنا كالصّدقات والزّكوات فينا غير أنّ قرابينهم كان يعلم المتقبّل منها وغير المتقبّل فيما ذكر بأكل النّار ما تقبّل منها وترك النّار ما لم يتقبّل منها[٥] وقال بعضهم : إنّ ذلك كان بسبب وهو حرص قابيل على أن يتزوّج توأمته وليس توأمة هابيل . وكانت من أحسن النّاس فضنّ بها على أخيه وأرادها لنفسه[٦] فقال له أبوه يابنيّ إنّها لاتحلّ لك فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه ، قال له أبوه يابنيّ قرّب قرباناً ويقرّب أخوك هابيل قرباناً فأيكّما تقبّل قربانه فهو أحقّ بها[٧] وبعضهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٤١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٤١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٤١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٤١ ، ٤٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦ /١٢٣ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢ /٤٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢ /٤٢ .

يقول : قرّب بقرةً فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله[1] وقال بعضهم إنّ تقديم القربان بدون سبب ، وعلّق على هذا الرّأي الآخر ابن كثير بالقول[2] : « وهو ظاهر القرآن » .

تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات فيما تحدّثت عن بغي بني إسرائيل ومن لفّ لفهم من الطّغاة البغاة . ويتحوّل السّياق إلى ابني آدم عليه السّلام والعاقبة الوخيمة للبغي . وتأمر الآية الكريمة الأولى محمّد بن عبدالله ﷺ أن يقصّ على بني إسرائيل وسواهم نبأ ابني آدم هابيل وقابيل وخبر الأخوين الغاية في الأهميّة والخطورة ، بالحقّ والصّدق ، فلا زيادة ولا نقص ، ولاتغيير ولاتبديل ، إذ قرّبا لله تعالى قرباناً ، فقرّب هابيل إلى الله تعالى كبشاً أو بقرة وكان صادق النيّة والطّويّة ، وقرّب قابيل سنابل قمح ، ولم يكن كأخيه صادق النّيّة والطّويّة ، فتقبل الله سبحانه وتعالى من أحدهما وهو هابيل بأن أرسل جلّ وعلا من السّماء ناراً فأحرقت قربان هابيل دليل قبول قربانه وحده ، فما كان من قابيل إلاّ أن قال لأخيه هابيل لأقتلنّك لأنّك تقبّل الله تعالى قربانك ولم يتقبّل منّي ، فردّ عليه هابيل كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ إنّما يتقبّل الله من المتّقين ﴾ إنّ الّذين أحبوا الله تعالى وخافوه وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وخافوا ناره وعملوا من أجل جنّته هم المتّقون الّذين يتقبّل الله تعالى أعمالهم ومنها القرابين . وقد فهم قابيل المعنى الّذي سبق هو إليه بكونه ليس من المتّقين .

وإلى أكل النّار من السّماء القربان دليلاً على قبول الله تعالى له في حقّ السّابقين حتّى بني إسرائيل أشار قوله تعالى[1] : ﴿ الّذين قالوا إنّ الله عهد إلينا ألاّنؤمن لرسولٍ حتّى يأتينا بقربانٍ تأكله النّار . قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبّينات وبالّذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٤٣ . وتفسير الطّبريّ ٦ /١٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٤٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٣ .

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

تستمرّ هذه الآية الكريمة في تقرير ما جرى على لسان الابن الصّالح الّذي تقبّل الله سبحانه وتعالى قربانه وتبيّن أنّه استمرّ في مخاطبة أخيه في أسلوب التّأكيد الّذي يفهم من لام القسم قائلاً : لئن بسطت إليّ يا أخي يدك لتقتلني ومددتها إليّ لتضع نهايةً لحياتي فإني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك لأنيّ أخاف الله سبحانه وتعالى ربّ العالمين في قتلك .

وإن ممّا يلفت الانتباه حقاً في الكشف عن خفايا النّفس العدوانيّة والنّفس غير العدوانيّة الجار والمجرور إليّ في حقّ الأخ المعتدى غير المتّقي ابتداءً وذلك في القول : ﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ﴾ إنّ الجارّ والمجرور يتقدّمان على اليد في القول : ﴿ لئن بسطت إليّ يدك ﴾ دليلاً على أنّ الأمر الأهمّ في حقّ الأخ المعتدى أن يصل إلى أخيه فعلاً ما يريد أن يصل إليه ، ونعرف بعد ذلك أنّ الّذي يصل هو اليد ، وهي يدٌ آثمة قاتلة . وفي المقابل يتأخّر الجارّ والمجرور في حقّ الأخ المسالم وذلك في القول : ﴿ ما أنا بباسطٍ يدي إليك ﴾ إنّ اليد البيضاء الطّاهرة هي الّتي تتقدّم دليلاً على تقوى هذا الأخ الّذي يخاف الله ربّ العالمين .

وإنّ في استخدام صيغة المفرد في حقّ اليد وليس المثنّى تنبيهاً إلى أنّ خطير الأعمال يصحّ أن تقوم به يدٌ واحدة ، هذا إلى جواز استعمال صيغة المفرد في حقّ العمل الّذي تقوم به اليدان معاً .

وإنّ خوف الله سبحانه وتعالى الّذي أوحت به الصّياغة صرّحت به الجزئيّة الأخيرة في الآية الكريمة : ﴿ إنّي أخاف الله رب العالمين ﴾ .

قال عبدالله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشدّ الرّجلين ولكن منعه التحرّج يعني الورع ، ولهذا ثبت في الصّحيحين عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟

قال : إنّه كان حريصاً على قتل صاحبه[1] قال أيوّب السّختياني : إنّ أوّل من أخذ بهذه الآية من هذه الأمّة عثمان بن عفان رضي الله عنه . رواه ابن أبي حاتم[2] .

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۖ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ ﴾

ويستمرّ الابن الصّالح مخاطباً أخاه الشّقيّ كما بيّنت الآية الكريمة قائلاً له : إنّي أريد أن ترجع بإثم قتلك لي وإثمك الّذي ارتكبته من قبل ، أن تبوء بذنبي وذنبك بسبب قتلك لي لاحقًا ، وارتكابك الموبقات سابقاً ، فتكون من أصحاب النّار الخالدين فيها الّذين لعنهم الله تعالى وأبعدهم من رحمته . وتقرّر الآية الكريمة في هذا التّذييل : ﴿ وذلك جزاء الظّالمين ﴾ نار الجحيم والعذاب الأليم اللّذين ينتظران من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض . وقد جاء في وعيد المؤمن الّذي يقتل مؤمناً متعمّداً قوله تعالى[3] : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾ .

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾

لم ينفع في قابيل خوف أخيه هابيل ربّه جلّ وعلا فيه ولا تحذيره من النّار وبئس القرار إن أقدم على قتله دون وجه حقّ وطوّعت لقابيل نفسه قتل أخيه وزيّنته وسهّلته وشجّعته على أن يضع نهايةً لحياة أخيه دون سببٍ موجبٍ لقتله سوى داء الحسد وباعثه . وترجم قابيل مازيّنته له نفسه الأمّارة بالسّوء إلى عمل فقتل أخاه فأصبح من الخاسرين في الدّنيا والآخرة لأنّه أفسد في الأرض وقطّع أواصر الأخوّة ولأنّه سينال يوم القيامة جزاء جريمته النّكراء . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أنّ النّبيّ ﷺ قال : لاتقتل نفسٌ ظلماً

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٤٤ .

(٣) سورة النساء ٩٣ .

إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ من دمها لأنّه كان أوّل من سنّ القتل[1] وقد ورد في الحديث أنّ النّبيّ ﷺ قال : ما من ذنبٍ أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدّنيا مع مايدّخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرّحم . وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[2] .

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

فبعث الله غراباً : عن ابن عبّاس : بعث الله جلّ وعزّ غراباً حيّاً إلى غرابٍ ميّتٍ فجعل الغراب الحيّ يواري سوأة الغراب الميّت فقال ابن آدم الّذي قتل أخاه يا ويلتي ...[3] .

يبحث في الأرض : يحفر في الأرض[4] وينبش التّراب بمنقاره ورجليه ويثيره على غرابٍ ميّتٍ معه حتّى واراه[5] .

ليريه كيف يوارى : يستر[6] .

سوأة أخيه : جيفة أخيه[7] .

قال ياويلتي : الأصل ياوَيْلَتِي ثمّ أبدل من الياء ألف . وهي كلمةٌ تدعو بها العرب عند الهلاك . وقال الأصمعيّ : ويلٌ بُعْدٌ[8] والويل حلول الشّرّ وبهاء الفضيحة أو هو

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٤٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٤٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١٢٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٢٨ .

(٥) الجلالين .

(٦) الجلالين .

(٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٢٨ .

(٨) تفسير القرطبيّ ٢١٤٢ .

تفجيع[1] .

فأصبح من النّادمين : « لم يكن ذلك ندم توبة »[2] .

بعد أن قتل الشّقيّ قابيل أخاه التّقيّ هابيل لم يعرف كيف يتخلّص من جيفة أخيه ، وهذا ابتلاءٌ من الله تعالى له وعذابٌ في الدّنيا قبل الآخرة ، والمعروف أنّ جيفة ابن آدم المتعفنة من أشدّ الجيف عفنا ، وحينما يجهل قابيل الكيفيّة التي يتخلّص بها من الميّت فذلك دليلٌ قويٌّ على أنّ المقصود في الآية الكريمة بابني آدم ابناه لصلبه فعلاً .

وإكراماً من الله سبحانه وتعالى للقتيل التّقيّ يبعث الله سبحانه وتعالى غراباً يبحث في الأرض ويثير ترابها بمنقاره ورجليه ويهيله على غرابٍ آخر ميّتٍ معه كي يتعلّم القاتل الباغي من الغراب الكيفيّة التي يستر بها جيفة أخيه بأن يواريه في التّراب . وينبغي أن يكون للجناس غير التّام بين بعث وبحث دورٌ صوتيّ بارزٌ في القول : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ﴾ ونستطيع أن نستنتج من بعث الله تعالى الغراب لابن ادم أنّ هذا النّوع من الطّير موجودٌ بإرادة الله تعالى منذ آدم عليه السّلام .

إنّ قابيل القاتل الباغي الّذي طوّعت له نفسه الأمّارة بالسّوء قتل أخيه يلقى عليه الغراب بإرادة الله تعالى درساً بليغاً في دفن الميّت ، وبذلك يصحّ في حقّه القول بأنّه قد غابت عنه أشياء وأشياء ، ومن هذه الأشياء ما يتعلّمه ، وهو الّذي كرّمه الله تعالى وأنعم عليه بالنّعم العظيمة والآلاء الجسيمة وفي مقدّمتها العقل مناط التّكليف ، ما يتعلّمه من الحيوان ! من الغراب المعروف بحبّه أكل الجيف كي يتخلّص قابيل من جيفة أخيه ! .

ويتخلّص قابيل من جيفة هابيل ويجرى على لسانه القول : ﴿ ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي﴾ ياويلي ويا هلاكي ، أعجزت أن أكون مثل هذا الحيوان ، مثل هذا الطّائر فأواري مثله سوأة أخي ، وأستر جيفة أخي القتيل .

وتظل النّفس الأمّارة بالسوّء مسيطرةً على قابيل فبدلاً من أنت يندم على ما فرّط في جنب الله تعالى ثمّ في حقّ أخيه هو يندم على جهده الّذي أنفقه هدراً في حمل جيفة أخيه متمنّياً من أعماقه لو أنّه علم بذاته الكيفيّة التي يوارى بها سوأة أخيه أو لو أنّ الدّرس المتأخّر الّذي تلقّاه من الغراب كان قد تقدّم : ﴿ فإنّها لاتعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب الّتي في الصّدور ﴾[3] .

---

(١) القاموس المحيط « ويل » . (٢) تفسير القرطبيّ ٢١٣٩ (٣) سورة الحج ٤٦ .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

تبيّن الآية الكريمة أنه بسبب قتل ابن آدم قابيل أخاه هابيل والسّنّة السّيّئة الّتي سنّها بالقتل ظلماً وعدواناً كتب الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل وشرع الله سبحانه وتعالى على أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه في التّوراة الّتي أوحاها الله تعالى لموسى عليه السّلام وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس وبغير سببٍ من قصاص أو فسادٍ في الأرض من حربٍ لله ورسله وكفرٍ بعد إيمان فكأنّما قتل النّاس جميعاً وبدون استثناء بقتله النّفس الواحدة، لأنّه لافرق لدى القاتل بين نفسٍ وأخرى .

وفي مقابل ذلك من أحيا نفساً واحدةً فكأنّما أحيا النّاس جميعاً للسّبب ذاته وهو أنّه لافرق بين نفسٍ وأخرى . ونستطيع أن نفهم الإحياء بأنّه الامتناع عن قتل النفس الّتي حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ . كما أنّنا نستطيع أن نفهم الإحياء بأنّه إنقاذ نفسٍ من هلاك محقّق أو شبه محقّق . إنّ النّفس الإنسانيّة المؤمنة غاليةٌ عند الله تعالى لذا فإنّ إحياءها في أيّ صورةٍ من الصّور كإحياء كلّ نفسٍ إنسانيّة . وإذا كان من قتل نفساً ظلماً وعدواناً كأنّه قتل النّاس جميعاً في الوزر الذي احتمله فإنّ من أحيا نفساً كأنّه أحيا النّاس جميعاً في الثّواب الّذي كسبه .

وتبين الآية الكريمة في جزئها الأخير أنّ بني إسرائيل لم ينتفعوا من هذه التّعاليم في مجموعهم ولم يستفيدوا من رسل الله تعالى إليهم ومن آيات الله تعالى البيّنات الّتي جاءوا بها . بل إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون خارجون عن الصّراط المستقيم منحرفون عن جادّة الصّواب اتّخذوا آيات الله سبحانه وتعالى وراءهم ظهريّاً وذلك على غرار بني

إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ الّذين لم يزدادوا بآيات الله تعالى وبخاتم الأنبياء والمرسلين إلاّ استكباراً في الأرض ومكر السّيّىء ولايحيق المكر السّيّيء إلاّ بأهله .

جزاء المحاربين لله ورسوله
الساعين في الأرض فسادًا

الآيات ٣٣ - ٤٠

إِنَّمَا
جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ
وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ
لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
٣٣

سبب النزول :

الّذي عليه الجمهور أنّها نزلت في العُرَنيّين . عن أنس بن مالك وغيره أنّ قوماً من قبيلة عُكْل أو من عُرَيْنة قدموا على رسول الله ﷺ فاجْتَوَوُا المدينة واستوخموها فأمر لهم رسول الله ﷺ بِلِقاح وهي الّنياق وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلّما صَحُّوا قتلوا راعي النّبيّ ﷺ بعد أن قطعوا يديه ورجليه وغرزوا الشّوك في عينيه وأُدْخِل المدينة ميتاً وكان اسمه يسار وكان نو بيّاً واستاقوا النّعم فبلغ النّبيّ ﷺ خبرهم من أوّل النّهار فأرسل في آثارهم فما ارتفع النّهار حتّى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسَمَرَ أعينهم وسَمَلَها بأن أمر بمسامير فأحميت فكحلهم وألقوا في الحرّة يستسقون فلا يُسْقَوْن وما حسمهم النّبيّ ﷺ بمعنى أنّه بعد أن قطعهم لم يكو العرق كيلا يسيل دمه وكانوا يقولون الماء فيقول رسول الله ﷺ النّار . وقد أنزل الله تعالى فيهم : إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً الآية[1] .

تبيّن الآية الكريمة جزاء الّذين يحاربون أولياء الله تعالى ودينه ويحاربون رسوله ﷺ ويحاربون المسلمين ويفسدون في الأرض بقطع الطّريق « والمحاربة هي المضادّة والمخالفة وهي صادقةٌ على الكفر وعلى قطع الطّريق وإخافة السّبيل وكذا الإفساد في الأرض »[2] .

قال الجمهور : هذه الآية منزّلةٌ على أحوال كما قال أبو عبدالله الشّافعي أنبأنا

---

(١) تفسير القرطبيّ ٢١٤٥ فما بعدها وانظر تفسير ابن كثير ٢ /٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٤٧ .

إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التّوأمة عن ابن عبّاس في قطّاع الطّريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السّبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . وهكذا قال غير واحدٍ من السّلف والأئمة . واختلفوا هل يصلب حيّاً ويترك حتىّ يموت بمنعه من الطّعام والشّراب أو بقتله برمحٍ أو نحوه ، أو يقتل أوّلاً ثمّ يُصَلَب تنكيلاً وتشريداً لغيره من المفسدين وهل يصلب ثلاثة أيّام ثمّ ينزل أو يترك حتّى يسيل صديده[1] وأصحّ قولي الشّافعيّ أنّ الصّلب ثلاثاً بعد القتل وقيل قبله قليلاً . والمراد بالقول ﴿ من خلاف ﴾ اليد اليمنى والرّجل اليُسْرى[2] .

والظّاهر أنّ الأرض في الآية هي أرض النّاوزلة[3] أي الحادثة والواقعة ، والنّفي بمعنى الإخراج من بلدٍ إلى بلدٍ[4] ويلحق بالنّفي ما أشبهه في التّنكيل من الحبس وغيره[5] .

وتقرّر الآية الكريمة في جزئيتها الأخيرة أنّ ذلك الجزاء الأليم في الدّنيا والعقاب الشّديد خزيٌ لأولئك الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً وذلٌّ وهوانٌ لهم في هذه الحياة الأولى ، أمّا في الآخرة فإنّ العذاب العظيم هو الّذي ينتظرهم .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

تستثنى الآية الكريمة من خزي الدّنيا وعقابها فريقاً واحداً فقط من الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، وهذا الفريق عماده الّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بأن ندموا على ما فرّطوا في جنب الله تعالى وأقلعوا عن محاربة الله تعالى ورسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعقدوا النّيّة على عدم العودة إلى الضّلالة بعد الاهتداء ، شريطة أن تحصل من المحاربين التّوبة من قبل أن تقدر عليهم السّلطة وشريطة ألاّ تكون لعباد الله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ /٥١ وانظر تفسير القرطبي ٢١٤٨ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢١٤٨ .

(٣) تفسير القرطبيّ ٢١٥٠ .

(٤) تفسير القرطبيّ ٢١٤٩ .

(٥) تفسير القرطبيّ ٢١٥٠ .

تعالى عليهم حقوق ، وكأنّ الفريق التّائب الّذي تقبل توبته من قبل أن يقدر عليه هو الفريق الّذي أخاف السّبيل ولم يأخذ المال ولم يقتل وبذلك يسقط عنه حكم النّفي من الأرض ، أي حقّ الله تعالى « أمّا القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط . ومن تاب بعد القدرة فظاهر الآية أنّ التوبة لاتنفع »[1] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم . وها هي ذي رحمة الله تعالى تشمل هؤلاء المحاربين فيتجاوز الله سبحانه وتعالى لهم عن حقّه وقد تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . وجاء في الجلالين تعقيباً على القول : ﴿ فاعلمُوا أنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ : « عبّر بذلك دون فلا تحدّوهم ليفيد أنّه لايسقط عنه بتوبته إلاّ حدود الله دون حقوق الآدميين . كذا ظهر لي ولم أر من تعرّض له . والله أعلم » .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

الوسيلة : عن ابن عبّاس أي القربة[2] والوسيلة هي الفعيلة من قول القائل : توسّلت إلى فلانٍ بكذا بمعنى تقرّبت إليه[3] وقال قتادة : أي تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد : أولئك الّذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة . وهذا الّذي قاله هؤلاء الأئمة لاخلاف بين المفسّرين فيه[4] .

بعد حديث السّياق عن الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً يتحوّل السّياق إلى مخاطبة الّذين آمنوا لأنّ الحديث عن الفئات المختلفة الصّفات من سمات القرآن الكريم المثاني الّذي يتحدّث عن الشّيء وضدّه ، المعنى وخلافه ، باعتبار التّقابل في

---

(١) تفسير القرطبيّ ٢١٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٥٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /٤٦ وتفسير القرطبيّ ٢١٥٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٥٢ .

الصّفات من وسائل الرّباط بين أجزاء الكلام . ثمّ إنّ الّذين يحاربون الله ورسوله بحاجةٍ إلى الفئة المؤمنة الّتي تتصدّى لأولئك المفسدين في الأرض امتثالاً لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ . وهذه الآية الكريمة تأمر الّذين آمنوا بأن يتقوا الله تعالى ويتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة والّتي أعدّها الله تعالى للكافرين وذلك بفعل الطّاعات وعمل الصّالحات الّتي تقرّبهم إليه جلّ وعلا ، كما تأمرهم بأن يجاهدوا في سبيله جلّ وعلا حقّ الجهاد بالنّفس والمال ومن ذلك مجاهدة الّذين يحاربون الله ورسوله فلعلّهم باتقاء الله تعالى وابتغاء الوسيلة إليه وجهادهم في سبيلهٔ جلّ وعلا حقّ الجهاد أن يكونوا من المفلحين الفائزين الّذين لاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

في حديث السّياق من ذي قبل عن جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله كانت ثمّة إشارةٌ إلى عذاب الآخرة العظيم الّذي ينتظرهم . وإنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تتحدّث عن عذاب الكافرين وفيهم الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا . والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا لو ثبت أنّ لهم يوم القيامة ما في الأرض جميعاً ابتداءً بالذّهب ، ومثله معه ليفتدوا به أنفسهم وينقذوها من عذاب ذلك اليوم الشّديد ما تقبّل منهم ولهم عذابٌ أليم . إنّ مبدأ الفداء مرفوضٌ في ذلك اليوم أساساً لأنّه يوم الجزاء وحده ، والآية الكريمة تريد أن تنبّه إلى العذاب الأليم في ذلك اليوم للدّرجة الّتي يتمنّى معها الكافر لو افتدى نفسه من كلّ ما يملك ، ولو كان يملك ما في الأرض جميعاً ومثله معه . عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرّجل من أهل النّار فيقال له يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شرّ مضجع . فيقال هل تفتدى بقراب[1] الأرض ذهبا ؟ قال : فيقول نعم يارب . فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقلّ من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النّار . رواه مسلم والنّسائيّ والبخاري[2] .

---

(١) قِراب الشّيء بالكسر وقرابه بالضمّ ما قارب قدره . القاموس .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٥٤ .

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

نفت الآية الكريمة السّابقة مبدأ الفداء يوم القيامة في حقّ الكافرين وهذه الآية الكريمة التّالية تنفي كلّ الوسائل الّتي يفكّر فيها ويلجأ إليها الّذين كفروا بقصد أن يخرجوا من النّار إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الذين كفروا يريدون أن يخرجوا من النّار ويتمنّون أن يغادروها ، وما هم بخارجين منها مطلقاً بل لهم عذابٌ مقيمٌ دائمٌ ثابتٌ مستمرّ ، لايخفّف ولا يتحوّل ولا يتوقّف والعياذ بالله . لقد وصف العذاب في الآية الكريمة السّابقة بكونه أليماً ، وفي هذه الآية الكريمة التّالية بكونه مقيما في حقّ الكافرين تمشّياً مع إقامتهم الدّائمة في النار وبئس القرار . والعياذ بالله .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

اهتمّ الإسلام بالإنسان من كلّ الجوانب المهمّة بالنّسبة له ، بدينه ، وبدمه ، وبماله ، وبعرضه ، وبعقله ، وسبق أن تحدّث السّياق عن الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً وبيّن حدود الله تعالى فيهم . ولمّا كان المال ممّا اهتمّ له الإسلام فقد وضع كلّ الوسائل الكفيلة بحماية المال والحصول عليه من الطّرق المشروعة وإنفاقه في سبله الصّحيحة . ولمّا كان اللّصوص من أكبر الوبال على النّاس لأنّهم يأخذون دون وجه حقّ عرق الآخرين ويسرقون كدحهم ويأخذون على حين غفلةٍ منهم جهدهم فقد كان عقاب السّارق والسّارقة في الإسلام صارماً . وقد آتى حكم الله تعالى في السّارق والسّارقة أكله في أيّ مجتمعٍ يطّبق أحكام الله تعالى . وهذه الحقيقة من الوضوح للدّرجة الّتي تغني عن التّدليل عليها إذ يكفي المقارنة بين مجتمعين اثنين يطبّق أحدهما أحكام الله تعالى فينعم بالأمن الّذي يرفرف على ربوعه ولايطبّق آخرهما أحكام الله تعالى فيتقلّب في شقاء الخوف

وعذاب انعدام الأمن والطّمأنينة .

والآية الكريمة الّتي نحن بصددها تبيّن حكم الله تعالى في السّارق والسّارقة وتقرّر أنّ كلاًّ من السّارق والسّارقة تقطع أيديهما جزاءً بما كسبا من مالٍ حرام ونكالاً من الله . إنّ قطع يد السّارق والسّارقة عقوبةٌ لهما ومجازاةٌ على صنيعهما السّيّيء وتنكيلٌ من الله بهما على ارتكاب ذلك . يقال : نَكَل بفلانٍ يَنْكُلُ نَكْلةً إذا صنع به صنيعاً يحذّر غيره إذا رآه .

ويتعلّق بقطع يد السّارق والسّارقة أمور منها .

السّارق والسّارقة لاتقطع يدهما إلاّ في ربع دينار أو فيما قيمته ربع دينار فصاعدا ، وهذا ما ورد به الحديث وقول عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ رضي الله عنهم[1] واتّفق الجمهور على أنّ القطع لايكون إلاّ على مَنْ أخرج من حِرْزٍ ما يجب فيه القطع[2] والحِرْز هو ما نُصِب عادةً لحفظ أموال النّاس وهو يختلف في كلّ شيءٍ بحسب حاله .

فاقطعوا أيديهما أي يمين كلٍّ منهما فقال الكافّة تقطع من الرُّسغ[3] فإذا عاد إلى السرقة قطعت رجله اليُسْرَى من مفصل القدم ثمّ اليد اليُسْرى ثمّ الرّجل اليمنى وبعد ذلك يعزّر[4] .

وهل يكون غُرْمٌ مع القطع أم لا ؟ .

ثمة اختلافٌ بين العلماء يرى أبو حنيفة أنّه لايجتمع الغُرْم مع القطع بحال اعتماداً على الآية الكريمة . وقال الشّافعيّ يغرّم قيمة السّرقة موسراً كان أو معسراً وتكون دَيْناً عليه إذا أيسر أدّاه وهو قول أحمد وإسحاق . وقال مالك : إن كانت العين قائمةً ردّها . وإن تلفت ، فإن كان موسراً غَرِم وإن كان معسراً لم يُتْبَع به ديناً ولم يكن عليه شيء[5] .

والصّفات في السّارق الّذي يستوجب حدّ السّرقة التّكليف ولايشترط الإسلام ، والاختيار ، وألاّ يكون للسّارق في الشّيء المسروق شبهة ، فلا يقطع الأب ولا الأم ولا الابن ولا الجدّ ولا السّيّد ولا العبد وهكذا .

---

(١) تفسير القرطبيّ ٢١٥٧ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢١٥٩ .

(٣) انظر تفسير القرطبيّ ٢١٦٨ و٢١٦٩ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير القرطبي ٢١٦٢ .

والصّفات في المسروق النّصاب ، وأن يكون ممّا يحلّ بيعه ، وألاّ يكون للسارق فيه ملك كمن سرق ما رهنه أو استأجره ، ولا شبهة ملك كمن سرق من بيت المال لأنّ له فيه نصيباً ، وأن يكون في حِرْز[1] .

ومن البيّن تنبيه الجزئية الكريمة الأخيرة : ﴿ والله عزيزٌ حكيم ﴾ على فحوى الآية الكريمة فالّذي أمر بقطع يد السّارق والسّارقة العزيز في ملكه الحكيم في صنعه وتدبيره وحكمه وقدره جلّ وعلا ولا ربّ سواه .

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾

إنّ ربّ العزة الّذي وسعت رحمته كلّ شيء فتح لعبده باب التّوبة على مصراعيه حتى قيام السّاعة وتطلع الشّمس من مغربها . والآية الكريمة تقرّر أنّ من تاب إلى الله تعالى بعد ظلمه نفسه بارتكاب المعاصي وظلمه الآخرين بسرقة أموالهم مثلاً وأصلح عمله فإنّ الله سبحانه وتعالى الّذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات يتوب عليه بمعنى أنّ الله جلّ وعزّ يرجعه إلى ما يحبّ ويرضى عمّا يكرهه ويسخط من معصيته[2] وفي التّذييل : ﴿ إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ لذنوب عباده ومنها السّرقة رحيمٌ بهم حين فتح لهم باب التّوبة ، وقبل توبتهم وعفا عن سيّئاتهم وربّما ستر عليهم .

ونستطيع أن نفهم أنّ المراد بالتّوبة في الآية الكريمة التّوبة بعد إقامة الحدّ بناءً على ما جاء في سبب النّزول وكون الآية الكريمة نزلت في المخزوميّة الّتي سرقت فقطع المصطفى صلّى الله عليه وسلم يدها وحديثها ثابتٌ في الصّحيحين ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنّسائي[3] ممّا جاء في الحديث الّذي رواه مسلم أنّ النّبيّ ﷺ لمّا كان العشيّ قام فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثمّ قال : أمّا بعد فإنّما أهلك الّذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق

---

(١) انظر تفسير القرطبيّ ٢١٦٤ ــ ٢١٦٦ وفقه السّنّة ٢ /٤١٤ ــ ٤٢٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٤٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٥٧ .